

رفيق الصبا (*)

للأستاذ محمد مندور

ها أنا اليوم أتماسك فأستطيع أن أذكر رفيق صباى الدكتور محمد الشحات أيوب الذى نقلت إلى الصحف خبر وفاته . ولقد بكاء قلبي فكان البكاء رحمة من الله وقد أوشكت حياتي أن تحتقن ضيقاً بوفاته .

. أيوب رفيق صباى منذ مدرسة الأتني الابتدائية بمينا القمح سنة ١٩١٧ إلى آخر عهدنا بتحصيل العلم سنة ١٩٣٩ بباريس .

(*) أرسل هذه الكلمة لمجلة الرسالة الفراء لأن الدكتور أيوب له بها عهد ، والكل يذكر بلا رب السلة التي ابتدأها بها عن « الشخصيات التاريخية » ، ونفذ منها « تيموستكل » . وقد كانت فكرته رحمه الله أن يحاول في التاريخ ما أحاوله في الأدب ، فينشر « شخصيات تاريخية » في الرسالة كما أنشر أنا « نماذج بشرية » في الثقافة ؛ وبذلك حسب وحببت أننا نساهم في الحركة الفكرية بنصيب ما . ثم إن اشتغال الزميل العزيز بالانتهاء من رسالته للدكتوراه صرفه عن الاستمرار في الموضوع فتركه مؤقتاً على أن يعود إليه فيما بعد . وها هو الموت يسبقه إلى ما أراد . اللهم آتس وحشته .

الظريف ... ثم ماشئت من مصراع ومصراع ، ورقص وشدر ، وبكاء وأنين . كل أولئك ما هزّ الفيلسوف وما أثر فيه .

لقد قطعت الليل تحاول إغراء كزيتوقراط ، فما خلبته فتنتها ، ولا هاجه سحرها ؛ لكنه لبث أمامها ينظر متجلداً ، كأنه قطعة من حجر أو قِدة من جليد ..

ولمست لايس أتوابها ، وخرجت من دار الفيلسوف مع الفجر وفي عينيها الحلوتين دموع الحمية والفشل

وانتشر الخبز مع النور ، فجاء صواحبها مصرعات ، فابتسمت لايس ، وقالت : « لقد راهنت على إغواء إنسان . أما كزيتوقراط فتمثال من جليد ... ! »

ونظر ليدأبها بعضهن إلى بعض دهشات ، وقلن : « لك عذرك يا لايس ! »

هذا حديث أرسطوفان ، ما أدري مبلغ التزييق أو التهويل فيه ، ولكنني ذكرت ، وقد تمثلت في خاطري صورة الفيلسوف حديثاً طريفاً للجاحظ ، عن نديم اسمه أبو المبارك الصباي ، كان أحلى خلق الله حلاوة وظرافة وفكراً ، وأربعهن حديثاً ونادرة

وهو زميلي في دراستي ، كان يحب كما أحب حضارة اليونان لأنها تسمو بالروح إلى أفق لا يمكن أن يدركه إلا من يصل إليه بنفسه بعد جهد طويل . ولقد علقت روحه بمثل اليونان : الخير والحق والجمال ، فأبفض الظلم والشر والقبح . من لي اليوم برفيق سواه ؟ كنت ألقاه فنرفع من قلوبنا بذكر من نحب من كتاب تلك الحضارة المشرقة . ولقد عرف أيوب كما عرفنا مرارة الظلم الذي ينزله الجهل بالنفوس الخيرة . ولقد تعزى أيوب كما تعزينا بالقيم الروحية . ولقد جاهد أيوب معنا لأننا عقدنا العزم على أن نكسب النفوس بأيماننا . وها هو أيوب يغادرنا ونحن لم نكد نبدأ الشوط . أيها الأخ الراحل : لقد كنا بحاجة إليك . ها أشعة الأمل تشرق في الأفق البعيد . عزيز على نفسي أن نستأثر بنصيبك فيها . اللهم املأ قبره ضوءاً . اللهم اهد إليه ضوء قلوبنا . قد يجهل الناس أيوباً ، فهل لي أن يصدقوني إن قلت إنه أمل خبا ، أمل قوى لا أعرف أملاً يساويه . لقد كان أيوب « مدرس » التاريخ القديم بجامعة فؤاد الأول « أستاذاً » منقطع النظر . كانت له قدرة عجيبة على البناء التاريخي . كنت تراه يجمع مواد له من ملخصات التاريخ بل من مصادر التاريخ . وكان رحمه الله

وعلماً ، وألفهين مذهباً وطريقة وفهماً . وكان قد خصى نفسه وأربى على المائة . وكان يتادم الخلفاء والوزراء ويفشى بيوت حرمين ، ويقضى الأوقات الطوال عندهن . وكان قلبه علوقاً بالجمال بتتبعه ويهم في أثره . فستل عن ميله إلى النساء ، وقد نخطى المسائه ؛ فزفر زفرة كادت تقصف ضلوعه وقال : « إنني لأسمع نغمة المرأة ، فأظن مرقة أن كبدي قد ذابت ، وأظن مرقة أنها قد انصدعت ، وأظن مرقة أن عقلي قد اختلس ، وربما اضطرب فؤادي عند ضحك إحداهن ، حتى أظن أنه خرج من في ... فكيف ألوم غيري عليهن ؟ »

فأشد اختلاف الطباع !

(دمشق) مصوح العربية المبر

حاشية : « جاء في مقالنا عن « الندوات الأدبية الخاصة في الغرب » المنشور في العدد (١٩٣) : « وسالون الادي هولاند في القرن الثالث عشر » وسوايه « القرن الثامن عشر » ورسم اسم النقاد اللاذع والمصور دبلوكوز Delecluz ، وسوايه Delecluz

فيقدم رسالته إلى السوربون بل قدمها إلى جامعة فؤاد الأول ، فإذا به يمنح أعلى درجة ترفها جامعتنا . وهذا ليس موضع فخارنا بأيوب ، وإنما نفخر بأنه استطاع أن يتمتع بصداقة أستاذنا جميعاً البروفسير جوجيه أستاذ التاريخ القديم بجامعة فرنسا سابقاً ومدير المعهد الفرنسي بالقاهرة في السنين الأخيرة ، والذي كان من حظ جامعة فؤاد الأول أن تنتدبه للتدريس بها . لقد كان البروفسير جوجيه ولا يزال يمز أيوباً بل يحبه حب تقدير لعله وإخلاصه وتفتح نفسه ، وكان يخصه دائماً بالثناء . وكانت محبة البروفسير لتلميذه وزميله محبة فعالة لأنها قامت على أساس شريف : أساس العلم . فكنت تراه يمين أيوباً على كل أموره . صنيها وكبيرها . عامها وخاصها . كم اهترت نفسي لنيل هذا الأستاذ الكريم إذ حدثني أصدقاء القاهرة أن البروفسير جوجيه لم يتخل عن أيوب أثناء مرضه ولا نسيه بل تردد عليه في كل حين وأعان على تلقي الموت بروح مطمئنة

وأحس أيوب أن ضعف المؤلفات العلمية من أكبر أسباب انحطاط التعليم ببلادنا انحطاطاً لا شك فيه ، فأخذ نفسه بوضع مؤلفين أحدهما عن النظم اليونانية والآخر عن النظم الرومانية . ولقد افترقنا منذ أشهر ، فلم أدر إلى أي مرحلة وصل في كتابتيه ، ولكنني على ثقة من أنه قد خطاهما خطوات واسعة ، لأن أيوباً كان عقلاً نشطاً ، وكان إذا قال نفذ وإذا وعد صدق . ترى ما مصير هذه الكتب ؟ إن كاتب هذه الأسطر يعتبرها نعمة من الله أن يستطيع ترتيب المواد وإتمام التفاصيل وإيضاح الغامض والإشراف على نشر تلك الأبحاث القيمة التي خلفها رفيق صباه ؛ وكلني أمل أن الجامعة والوزارة ستقدرا قيمة هذه الأشياء فترصد المال اللازم لإذاعتها بين الناس

يجب أن تنشر رسالة الدكتوراه لأيوب ، والجزء الذي ترجمه أيوب من هانوتو ، ومذكرات أيوب ومقالاته . هذه كنوز . وقد ذاق أيوب الرق في حياته ، فهل لنا أن نكفر عن ذلك بالإحسان إلى ذكراه ؟

أما حزني على هذا الصديق فأعز من أن يحويه لفظ . اللهم ارحمه !

أيها الصديق الراحل ! سنجاهد كما جاهدت حتى نلحق بك . سنظل كما عهدتنا جنداً في خدمة الروح . إلى اللقاء .

(الأيكنبرية)

يعلم ويحس أن التاريخ قصة نفاذ الروح البشرية إلى العالم والكائنات ، ولهذا كان يتتبع مسار تلك الروح في مظاهرها . مصادر التاريخ عنده كانت تماثيل قدياس وبراكستيل ، خطب بركليس وديموستين ، مسرحيات سوفوكليس وأوربيدس ، ملاحم هوميروس ، وأغاني بنداروس ، قصص هيرودوت ، وتحليل توكيديدس . التاريخ عنده كان شيئاً واحداً : الروح البشرية في مظاهرها المتعددة . جاءني يوماً يطلب إلى رواية الفرس لأيسكيلوس ليتخذها مصدراً من مصادر المعرفة الحقة . المعرفة الإنسانية بعمركة سلامين .

درس أيوب التاريخ بمصر فكان الأول بين أقرانه ؛ وأرسل أيوب في بعثة إلى باريس ثمان سنوات حيث أخذ العلم عن جلوتر وجنيير وسينوبوس وأمثالهم ممن تتطأ لهم الهامات في العالم أجمع . ولم يكف بتحصيل المعرفة من بطون الكتب وأفواه الأساتذة بل ذهب عاملاً كاملاً إلى بلاد اليونان يقلب آثار الماضي الجيد ويستنطق الحجارة . وعاد أيوب إلى مصر بعد أن طوف بدلف وديلبوس وفيليب وأولبي وقد انصهرت المعرفة بنفسه فإذا بالتاريخ القديم عنده كذكريات حياته الخاصة يحديثك عنه في طلاقة وحرارة وقوة فيكسبك .

عجيب أن يموت أيوب ! عجيب أن يحيف هذا النبع قبل أن يتدفق ! لقد حضر أيوب بالجامعة ثلاث سنوات فقط . لكن سل زملاؤه ، سل تلاميذه وهم موضع أمله ، سلهم بخبروك عن هذا العالم الثبت الذكي الفؤاد الفصيح اللسان . لقد أخصب أيوب نفوساً يستذكره بالرحمة .

لم يتوان أيوب عن أداء رسالته . ولقد عقد العزم ونحن معه على أن نؤديها ، تفكر الناس أورشوا ، ظلموا أو أنصفوا . ولقد أحس بالظلم تكويننا ناره فصمد له وشمر عن ساعده فترجم جزءاً هاماً من « تاريخ مصر » لهانوتو ، ذلك الكتاب الضخم الذي وضعته جماعة من علماء فرنسا بتكليف من ملكنا العظيم فؤاد الأول رحمه الله ، ورأت وزارة المعارف أن تنقله إلى لغتنا ، فأدرك بعض رجالها أن أيوباً في طليعة من ينهضون بهذا العمل الجليل الشاق

وقالوا إن المرء لا يثبت علمه إلا إذا كان « دكتوراً » ، وكان أيوب بعد رسالة أصيلة باللغة الفرنسية عن تاريخ طيبة اليونانية . وقبوا على أيوب فلم يرد أن ينتظر حتى تسكن الحرب ،

محمد مندور